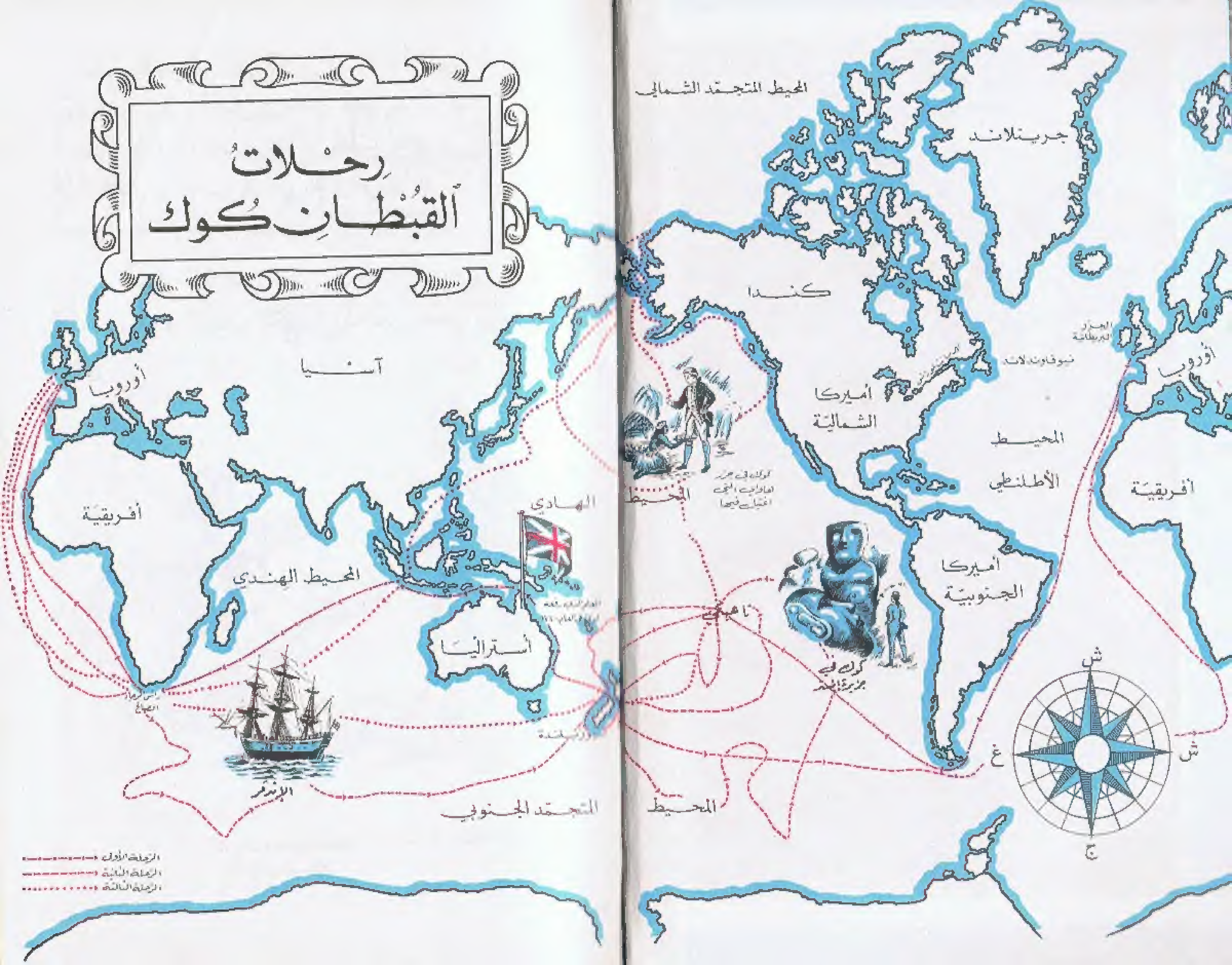
القُبْطانُ كُوكُ




رحلات
القبطان كوك
المحيط المتجمد الشمالي
جرينلاند
كندا
آسيا
أوروبا
أمريكا الشمالية
نيوفاوندلاند
المحيط الأطلنطي
أفريقية
الهادي
المحيط
المحيط الهندي
أستراليا
أمريكا الجنوبية
تاهيتي
المتجمد الجنوبي
المحيط
ش
غ
ج
الرحلة الأولى
الرحلة الثانية
الرحلة الثالثة

هٰذِهِ سِيْرَةُ واحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ ٱلْمَلاحِينَ وَٱلرَّحّالَةِ ٱلْمُسْتَكْشِفِينَ . إِنَّهُ ٱلْقُبْطانُ كُوك ٱلَّذي يَعُودُ لَهُ ٱلْفَضْلُ في إِعْدادِ خَرائِطَ مِلاحِيَّةٍ لِعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ ٱلْمَسالِكِ ٱلْبَحْرِيَّةِ ؛ وبَعْضُ خَرائِطِهِ ظَلَّ مُسْتَعْمَلاً مَدَى مائَتَيْ عامٍ . كَما أَنَّ لَهُ ٱلْفَضْلَ في ٱلْوُصُولِ إِلى جُزُرٍ وأَماكِنَ لَمْ يَكُنْ قَدْ سُبِقَ إِلَيْها ، وفي مُحاوَلَةِ ٱسْتِكْشافِ مَمَرّاتٍ جَدِيدَةٍ عَبْرَ ٱلْبِحارِ .

وقِصَّةُ حَياتِهِ نَفْسُها مُغامَرَةٌ شَيِّقَةٌ يَطِيبُ لَنا قِراءَتُها ، لِما فِيها مِنْ حُبٍّ لِلْمُغامَرَةِ ورَغْبَةٍ في ٱكْتِشافِ ٱلْمَجْهُولِ ، مَهْما تَكُنِ ٱلصِّعابُ وكَيْفَما تَكُنِ ٱلنَّتائِجُ .

طبع في انكلترا
١٩٨٠

القُبْطان كُوك

تأليف : ل. دوغارد پيتش
رُسوم : جون كني
نقلته الى العربية : بهية كرم



مكتبة لبنان



سِيرَةُ جيمز كُوك

كانَ ٱلقُبْطانُ جيمز كُوك واحِدًا مِنْ أَعْظَمِ مَشاهيرِ ٱلمَلّاحِينَ ٱلذين تركُوا شَواطِئَ بِلادِهِمْ بَحْثًا عَنْ أَراضٍ جَديدَةٍ .

وُلِدَ في عامِ ١٧٢٨ في قَرْيَةٍ بِمُقاطَعَةِ يُورْكْشير في إِنْجلترا ، حَيْثُ كانَ والِدُهُ يَعْمَلُ في مَزْرَعَةٍ . وكانَتْ عائِلَتُهُ فَقيرَةً فَٱضْطُرَّ إلى تَرْكِ ٱلدِّراسَةِ في سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ لِمُعاوَنَةِ والِدِهِ . ولكنَّهُ لَمْ يَكُنْ راغِبًا في الاسْتِمرارِ في ٱلعَمَلِ كَمُزارِعٍ ، فَلَمّا بَلَغَ ٱلسّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، ٱلْتَحَقَ كَصَبِيٍّ حانوتٍ في سْتِيذ ، وَهِيَ قَرْيَةُ صَيْدٍ بِٱلقُرْبِ مِنْ بَلْدَةِ وِتْبي .

وكانَ عَلَيْهِ ، في كَثيرٍ مِنَ ٱلأَوْقاتِ ، تَوْصيلُ ٱلبضائِعِ إلى ٱلميناءِ . وهُناكَ كانَ يَقْضي أَوْقاتَ فَراغِهِ كُلَّها يُراقِبُ ٱلسُّفُنَ ويَتحدَّثُ إلى ٱلمَلّاحِينَ . وسُرْعانَ ما قَرَّرَ هُوَ نَفْسُهُ أَنْ يَكُونَ بَحّارًا . وقَدْ قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَرى في حَياتِهِ مِنَ ٱلأَماكِنِ ما لَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ قَدْ رآهُ مِنْ قَبْلُ .



وزُعِمَ أَنَّهُ ، حِيْنَ كانَ يَعْمَلُ صَبِيًّا مُساعِدًا في ٱلحانُوتِ ، سَرَقَ قِطْعَةً نَقْدِيَّةً زَهِيدَةَ ٱلقِيمَةِ مِنْ حَصِيلَةِ ٱلحانُوتِ وأَبْحَرَ هارِبًا . ولكنَّ هٰذِهِ رِوايَةٌ غَيْرُ صَحِيحَةٍ ، وٱلحَقِيقَةُ أَنَّ مالِكَ ٱلحانُوتِ نَفْسَهُ أَرادَ مُساعَدَتَهُ ، فَأَخَذَهُ إلى واحِدٍ مِنْ أَصْدِقائِهِ يَمْتَلِكُ بَعْضَ ناقِلاتِ ٱلفَحْمِ .

وَكانَتْ تِلْكَ ٱلنّاقِلاتُ سُفُنًا صَغِيرَةً جِدًّا ، وَسِخَةً ، تَنْقُلُ ٱلفَحْمَ بَيْنَ مَوانِئِ ٱلسّاحِلِ ٱلشَّرْقِيِّ . ولَمْ يَكُنْ كُوك يَأْبَهُ بِذٰلِكَ ما دامَ فِيهِ تَحقِيقٌ لِرَغْبَتِهِ في أَنْ يُصْبِحَ بَحّارًا .

وكانَتْ أَوَّلُ سَفِينَةٍ عَمِلَ عَلَيْها تُدْعَى فْرِي لاف ، وعَلَيْها بَدَأَ يَدْرُسُ ٱلمِلاحَةَ ، أَيْ فَنَّ إيجادِ ٱلطَّرِيقِ فَوْقَ ٱلبِحارِ مِنْ خِلالِ مُلاحَظَةِ مَراكِزِ ٱلشَّمْسِ وٱلنُّجومِ مُلاحَظَةً دَقِيقَةً .



وَسُرْعانَ ما وَصَلَتْ أَخْبارُ ٱلنَّشاطِ ٱلذي يُبْدِيهِ كُوك في أَوْقاتِ فَراغِهِ إلى مالِكِ ٱلسَّفِينَةِ ، فَرَأَى أَنَّ في ذٰلِكَ ٱلفَتَى ما يُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يكُونَ أَكْثَرَ مِنْ بَحّارٍ عادِيٍّ . ولِذا فإِنَّهُ حِيْنَ أَنْزَلَ سَفِينَتَهُ ٱلجديدةَ – وٱسْمُها فِرِنْد شِپ (أَيِ ٱلصَّداقَةُ) – اخْتارَ كُوك لِيَكُونَ أَحَدَ ضُبّاطِها .

وٱسْتَمَرَّ كُوك مُدَّةَ ثَلاثِ سَنَواتٍ كَمُعاوِنِ قُبْطانٍ في سَفِينةٍ تِجارِيَّةٍ تَتَنَقَّلُ بَيْنَ مَوانِئِ ٱلبَلْطِيقِ . وأَكْسَبَهُ هٰذا خِبْرَةً طَيِّبَةً أَفادَتْهُ في رِحْلاتِهِ ٱلبحريَّةِ حَوْلَ ٱلعالَمِ فِيما بَعْدُ ، حَيْثُ إِنَّ بَحْرَ ٱلشَّمالِ كَثِيرًا ما يُغَطِّيهِ ضَبابٌ كَثِيفٌ ، وعَلَى مَنْ يُبْحِرُ فِيهِ أَنْ يكُونَ مَلّاحًا قَدِيرًا .

وكان كُوك مَلّاحًا ماهِرًا تَفُوقُ خِبْرَتُهُ ما كانَ لَدَى أَيٍّ مِنْ بَحّارَةِ مالِكِ ٱلسَّفِينةِ . فَلَمّا تَرَكَ قُبْطانُ ٱلسَّفِينةِ فِرِنْد شِپ ٱلخِدْمَةَ ، عَرَضَ ٱلمالِكُ على كُوك ٱلمَرْكَزَ ٱلشّاغِرَ . وكانَتْ تِلْكَ فُرْصَةً طَيِّبَةً لِشابٍّ في مُقْتَبَلِ ٱلعُمْرِ ، إلّا أَنَّ كُوك رَفَضَ هٰذا ٱلعَرْضَ رَغْبَةً مِنْهُ في الاِلْتِحاقِ بِٱلبحريَّةِ ٱلمَلَكِيَّةِ .



وفي تِلْكَ ٱلأَيّامِ كانَتِ ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمُتَّبَعَةُ لِجَمْعِ أَنْفارٍ لِلبحريَّةِ هي ما كانَ يُعْرَفُ بِجَماعاتِ ٱلتَّطويعِ . وكانَتْ هٰذِهِ جَماعاتٍ مِنَ ٱلرِّجالِ وٱلضُّبّاطِ يُبيحُ لَهُمُ ٱلقانُونُ ٱلتَّجَوُّلَ في ٱلشَّوارِعِ وجَمْعَ ٱلرِّجالِ بِٱلقُوَّةِ لِيُصْبِحُوا بَحّارَةً في ٱلبحريَّةِ ٱلمَلَكِيَّةِ . كَذٰلِكَ كانَ ٱلسُّجَناءُ يُسْحَبُونَ مِنَ ٱلسُّجُونِ لِيُضَمُّوا إلى ٱلبحريَّةِ . ولَمْ يَكُنْ يَتَطَوَّعُ إلّا ٱلقِلَّةُ ٱلنّادِرَة .

ولأَنَّ مُعْظَمَ ٱلبَحّارةِ كانُوا مِنَ ٱلرِّجالِ المطوَّعِينَ أَوْ مِنَ ٱلمُجْرِمينَ ، فَقَدْ كانُوا يَرْغَبُونَ في تَرْكِ ٱلخِدْمَةِ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُ . أَمّا كُوك فَقَدْ خالَفَ ٱلعُرْفَ ولَحِقَ بِٱلبحريَّةِ أَمَلًا في أَنْ يُصْبِحَ يَوْمًا ما ضابِطًا على إِحْدَى سُفُنِ ٱلمَلِكِ .

وكانَ يَعْلَمُ صُعُوبَةَ ٱلوُصُولِ إلى هٰذا ٱلهَدَفِ . فَقَدْ كانَ أَولادُ ٱلأَغنِياءِ وَحْدَهُمْ يَلْتَحِقُونَ بِٱلبحريَّةِ بِرُتْبَةِ ضابِطٍ ؛ أَمّا والِدُهُ هُوَ فَلَمْ يَكُنْ غَنِيًّا . إلّا أَنَّ كُوك كانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ إذا ٱلتَحَقَ بِٱلبحريَّةِ كَبَحّارٍ فَسَوْفَ تُساعِدُهُ خِبْرَتُهُ في ٱلمِلاحَةِ ومَهارَتُهُ على ٱلتَّرَقِّي . وهكذا كانَ . فَقَدْ عُيِّنَ بَعْدَ شَهْرَيْنِ مِنِ ٱلتِحاقِهِ بِٱلبحريَّةِ ٱلمَلَكِيَّةِ ، مُساعِدَ قُبْطانٍ .



وكانَ مِنْ واجِباتِ كُوك كَمُساعِدِ قُبْطانٍ في ٱلبحريَّةِ ٱلمَلكيَّةِ ، تَحْديدُ مَوْقِعِ ٱلسَّفينةِ في عُرْضِ ٱلبَحْرِ وإصْدارُ ٱلأَوامِرِ لِقائدِ ٱلدَّفَّةِ . ومِنَ ٱلبَديهِيِّ أَنَّهُ كانَ رَجُلًا مُتَفَوِّقًا وإلّا لَمَا أُسْنِدَ إلَيْهِ مَنْصِبٌ هامٌّ كَهٰذا حِيْنَ كانَ لا يَزالُ في سِنِّ ٱلتّاسِعَةِ وٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ .

وحِيْنَ كانَ كُوك على ظَهْرِ ٱلسَّفينةِ إيجِل (أَيِ ٱلنَّسْرِ) ٱلتي بَدَأَ فيها خِدْمَتَهُ ٱلعَسْكَرِيَّةَ ، نَشِبَتِ ٱلحَرْبُ بَيْنَ إنْجِلترا وفَرَنْسا لِلْهَيْمَنَةِ على كندا وغَرْبِيِّ أمريكا ، ٱلبَلَدَيْنِ ٱلجَديدَيْنِ ٱلغَنِيَّيْنِ . وصَدَرَتِ ٱلأَوامِرُ إلى ٱلبحريَّةِ بأَسْرِ ٱلسُّفُنِ ٱلفرنسيَّةِ حَيْثُما وُجِدَتْ ؛ وكانَتِ ٱلسُّفُنُ ٱلتِّجاريَّةُ في تِلْكَ ٱلأَيّامِ تُضارِعُ ٱلسُّفُنَ ٱلحربيَّةَ في تَسَلُّحِها . تَقابَلَتِ ٱلسَّفينةُ إيجِل وٱلسَّفينةُ ٱلفرنسيَّةُ دُوق أكويتيني ونَشِبَتْ بَيْنَهُما مَعْرَكَةٌ عَنيفَةٌ وَسْطَ عاصِفَةٍ هَوْجاءَ . وتَبَيَّنَ أَنَّ ٱلسَّفينةَ ٱلإنجليزيَّةَ أَفْضَلُ قيادَةً ، مِمّا أَدّى إلى أَسْرِ ٱلسَّفينةِ ٱلفرنسيَّةِ .

وعلَى إثْرِ ذٰلِكَ رُقِّيَ كُوك إلى مَرْتَبَةِ قُبْطانٍ ، وٱنْتَقَلَ إلى سَفينَةٍ أَكْبَرَ ، هِيَ بِمْبرُوك ، إحْدَى سُفُنِ ٱلبحريَّةِ ٱلمَلَكِيَّةِ .



بَعْدَ ذٰلِكَ ، سُرْعَانَ ما قَرَّرَتِ ٱلحُكُومَةُ ٱلإِنجليزيَّةُ إرْسالَ أُسْطُولٍ قَوِيٍّ لِيُحاوِلَ الاسْتِيلاءَ على كَنَدا .

إذا أَلْقَيْتَ نَظْرَةً على خَرِيطَةِ أَمريكا ٱلشَّماليَّةِ تَجِدُ نَهْرًا عَظِيمًا يَصِلُ ٱلبُحَيْراتِ ٱلخَمْسَ ٱلكَبِيرَةَ بِٱلبَحْرِ . هذا هُوَ نَهْرُ سانْت لُورانْس ، وهُوَ يَجْرِي بَيْنَ كَندا والوِلاياتِ ٱلمُتَّحِدةِ ٱلأَمريكيَّةِ . وكانَ في عَهْدِ ٱلقُبْطانِ كوك تَحْتَ سَيْطَرَةِ فَرَنْسا . وصَدَرَتِ ٱلأَوامِرُ لِلأُسْطُولِ بِأَنْ يَسْتَوْلِيَ على ٱلنَّهْرِ .

ونَجَحتِ ٱلحَمْلَةُ وسَقَطَ عَدَدٌ مِنَ ٱلمُسْتَوْطَناتِ ٱلفَرَنْسِيَّةِ ٱلصَّغيرةِ في يَدِ ٱلإنجليز ، بَيْنَما مَدِينَةُ كِيبك ٱلواقِعَةُ في أَعالي ٱلنَّهْرِ ، وٱلَّتي هِيَ أَهَمُّ تِلْكَ ٱلمَراكِزِ .

ونَهْرُ سانْت لُورانْس نَهْرٌ عَرِيضٌ تَتَخَلَّلُهُ جُزُرٌ عَدِيدَةٌ وأَماكِنُ قَلِيلَةُ ٱلغَوْرِ . وهُنا بَرْهَنَ ٱلقُبْطانُ كوك على كَفاءَتِهِ ٱلمُمْتازَةِ في تَخَيُّرِ ٱلمَمَرّاتِ ٱلصّالِحَةِ . فَلَمّا أَبْحَرَتِ ٱلسُّفُنُ إلى كِيبك بَعَثَ إِلَيْهِ ٱلجِنرالُ وُولْف قائدُ ٱلقُوّاتِ ٱلبريطانيَّةِ يَسْتَدْعِيهِ لِمُهِمَّةٍ خاصَّةٍ يَعْهَدُ بها إِلَيْهِ .



وَلَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا مُهاجَمَةُ كِيبِكَ إلّا عَبْرَ ٱلنَّهْرِ. ولِلْقِيامِ بِهٰذا ٱلعَمَلِ كانَ على ٱلجُنودِ أَنْ يَتْرُكوا ٱلسُّفُنَ ٱلكَبيرةَ ويَسْتَقِلُّوا قَوارِبَ صَغيرةً. وبِطَبيعَةِ ٱلحالِ أَرادَ ٱلجِنِرالُ وُولف أَنْ تَقْتَرِبَ ٱلسُّفُنُ ٱلكُبْرَى مِنَ ٱلشّاطِئِ إلى أَقْرَبِ نُقْطَةٍ مُمْكِنَةٍ. وعُهِدَ إلى ٱلقُبْطانِ كُوك ٱلإِشْرافُ على هٰذِهِ ٱلتَّحَرُّكاتِ.

وحَتَّمَ هٰذا على كُوك رُكوبَ أَحَدِ ٱلقَوارِبِ ٱلصَّغيرةِ وسَبْرَ عُمْقِ ٱلمِياهِ وتَخْطِيطَ مَواقِعِ ٱلأَماكِنِ ٱلقَريبةِ ٱلغَوْرِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ هٰذه ٱلمُهِمَّةَ كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَ مُهِمَّةً أُخْرَى أَشَقَّ وأَعْظَمَ. فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنْ تَبْدأَ ٱلحَمْلَةُ بَعْدَ هُبُوطِ ٱلظَّلامِ، فَيَنْزِلَ ٱلجُنودُ إلى ٱلشّاطِئِ مِنْ قَوارِبِ ٱلتَّجديفِ ٱلصَّغيرةِ، وكانَ على كُوك أَنْ يَقُودَ هٰذه ٱلقَوارِبَ عَبْرَ ٱلمَمَرّاتِ ٱلمُتَعَرِّجَةِ ٱلتي سَبَقَ أَن سَبَرَ غَوْرَها.

وهٰذِهِ مُهِمَّةٌ عَسيرَةٌ. إلّا أَنَّ ٱلقُبْطانَ كُوك كانَ يَعْلَمُ أَنَّ نَجاحَ ٱلحَمْلةِ يَتَوقَّفُ عَلَيْهِ، فَقامَ بِقِيادَتِها في تَأَنٍّ وعِنايَةٍ.



وَوَصَلَتِ ٱلقَوَارِبُ ٱلصَّغِيرَةُ ٱلشَّاطِئَ بِنَجاحٍ لِتُواجِهَ ما هُوَ مَعْرُوفٌ بِمُرْتَفَعاتِ أَبْراهامَ .

ولَبِثَ كُوك مَعَ ٱلقَوارِبِ ٱلصَّغِيرةِ على أُهْبَةِ الاَسْتِعْدادِ لِلْعَوْدَةِ بِٱلجُنُودِ إذا ما فَشِلَتِ ٱلحَمْلَةُ . ولكِنَّ ٱلحَمْلَةَ لَمْ تَفْشَلْ .

صَعِدَ ٱلجِنِرالُ وُولْف وجُنُودُهُ في ٱلظَّلامِ ٱلدَّامِسِ طَرِيقًا شَدِيدَ الاَنْحِدارِ ، مُنْزَلِقًا ، لِيُهاجِمُوا ٱلجُنودَ ٱلفَرَنْسِيِّينَ في أَعْلَى ٱلطَّرِيقِ . ووَصَلَتِ ٱلجُنُودَ ٱلفَرَنسِيِّينَ إمْداداتٌ مِنَ ٱلمدِينَةِ ، إلّا أَنَّ الإنجليزَ لَمْ يُطْلِقُوا نِيرانَهُمْ حَتَّى كانُوا على بُعْدِ أَرْبَعِينَ يارِدَةً فَقَطْ مِنْ أَعْدائِهِمْ .

وأَثارَتْ قَعْقَعَةُ ٱلمَدافِعِ ٱلإنجليزِيَّةِ في ٱلجُنُودِ ٱلفَرَنْسِيِّينَ بَلْبَلَةً ، ورَأَى ٱلجِنِرالُ وُولْف ٱلفُرْصَةَ مُناسِبَةً لِلْهُجُومِ ، فَهاجَمَ مُتَقَدِّمًا مَجْمُوعَةً مِنْ خِيْرَةِ جُنُودِهِ .

وٱنْتَصَرَتِ ٱلحَمْلَةُ ، إلّا أَنَّ ٱلجِنِرالَ ٱلباسِلَ لَقِيَ مَصْرَعَهُ ساعَةَ الاِنْتِصارِ .

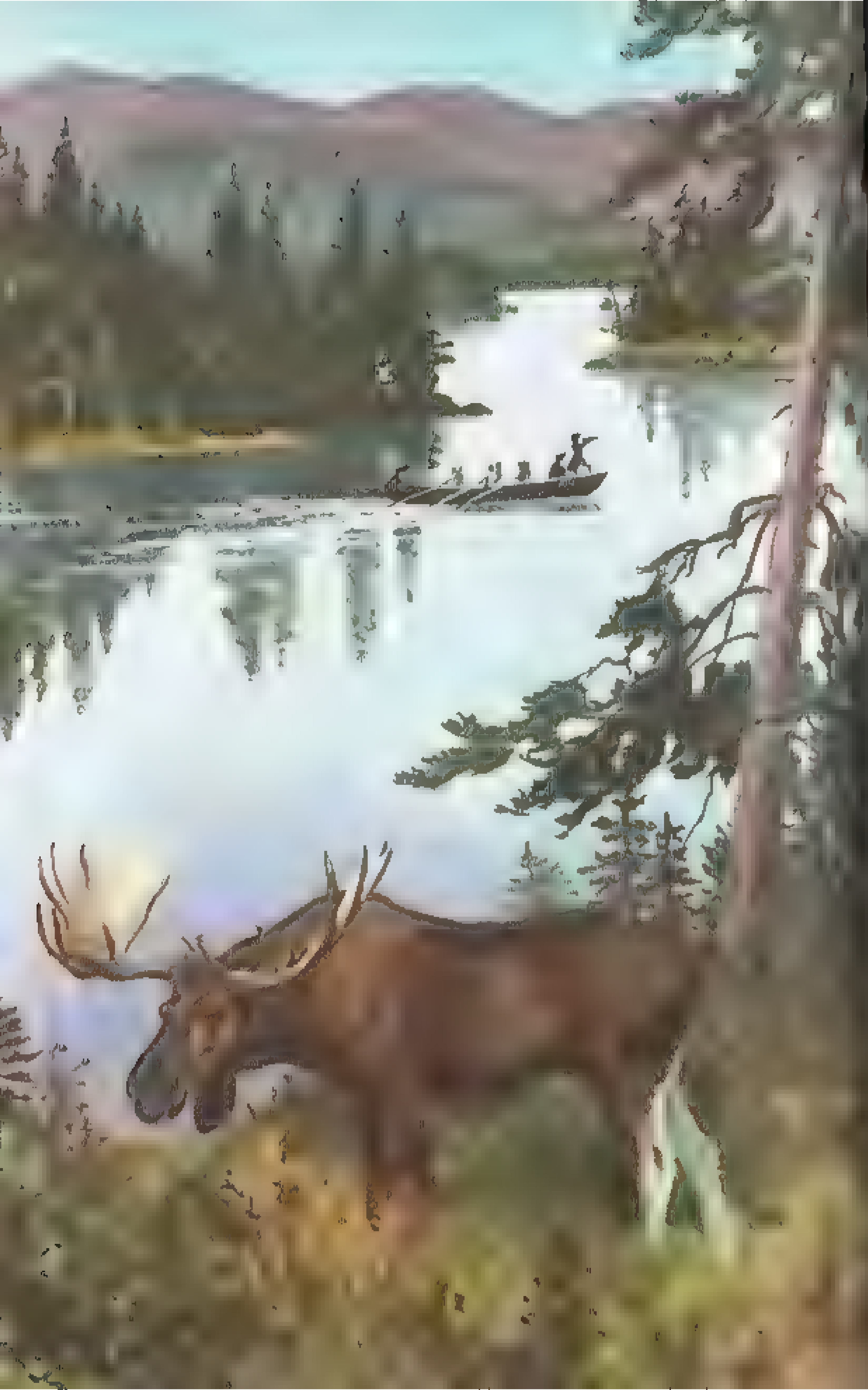


وأَصْبَحَتْ كَنَدَا في قَبْضَةِ بريطانْيا وَهِيَ اَلْيَوْمَ طَبْعًا بَلَدٌ مُسْتَقِلٌّ ، وعُضْوٌ في مَجْمُوعَةِ اَلكُومُنْوِلْث .

وتَلا ذٰلِكَ فَتْرةُ سَلامٍ وهُدُوءٍ . ونُقِلَ كُوك إلى سَفِينَةٍ تُدْعَى نُورْثَمْبِرْلَنْد . وأُتيحَ لَهُ أَنْ يُمارِسَ على نَهْرِ سانْت لُورانْس عَمَلَه اَلْمُحَبَّبَ وهُوَ دِراسَةُ اَلتَّخطِيطِ اَلمِلاحِيِّ .

واَلتَّخطِيطُ اَلمِلاحِيُّ يَعْنِي رَسْمَ خَرِيطَةٍ لِشاطِئِ اَلبَلَدِ ودِراسَةَ شَكْلِ اَلبَحْرِ وأَعْماقِهِ قُرْبَ ذٰلِكَ اَلشَّاطِئِ ، دِراسَةً دَقِيقَةً على اَلواقِعِ . وإذا لَمْ تَكُنِ اَلدِّراسَةُ دَقِيقَةً ، فَاَلمَلّاحُونَ اَلذين يَسْتَعِينُونَ بِتِلْكَ اَلخَرائِطِ يُعَرِّضُونَ سُفُنَهُمْ لِلْغَرَقِ .

وإِنْجازُ هٰذا اَلعَمَلِ عَسِيرٌ ، فَلَيْسَ مِنَ اَلسَّهْلِ قِياسُ اَلمَسافاتِ على اَلماءِ ، ولكِنَّ كُوك عَلَّمَ نَفْسَهُ هٰذا اَلعَمَلَ . وأَصْبَحَتْ خَرائِطُهُ أَفْضَلَ مِنْ أَيَّةِ خَرائِطَ أُخْرَى خَطَّطَها أَساتِذَةٌ آخَرُونَ في اَلأُسْطُولِ .



ولكيْ يُخَطِّطَ مَجْرَى نَهْرِ سانْت لُورانْس ٱلعظيمِ ، كانَ كوك مُضْطَرًّا لِقَضاءِ أَيَّامٍ طَوِيلَةٍ في قارِبٍ صَغِيرٍ لِيَسْبُرَ عُمْقَ ٱلمِياهِ ويُحَدِّدَ نُقْطَةَ وُجُودِهِ على ٱلخَرِيطةِ .

لَمْ يَكُنْ هٰذا يَسيرًا ، فَعَرْضُ نَهْرِ سانْت لُورانْس في بَعْضِ ٱلأَماكِنِ يَبْلُغُ بِضْعَةَ أَمْيالٍ . وكانَ كُوك كُلَّما عَثَرَ على مَكانٍ قَليلِ ٱلعُمْقِ أَوْ شاطِئٍ رَمْلِيٍّ قامَ بِتَحْديدِ مَوْقِعِهِ بِٱلضَّبْطِ على ٱلخَرِيطةِ حتَّى يُمْكِنَ لِلسُّفُنِ التي تَعْبُرُ ٱلنَّهْرَ جيْئَةً وذَهابًا ، تَجَنُّبُ ذٰلِكَ ٱلمكان .

وكانَتْ هُناكَ طَرِيقَةٌ وَحِيدةٌ لِلْقِيامِ بِهٰذا ٱلعَمَلِ ٱتَّبَعَها كوك ، وهي تَحْدِيدُ ٱتِّجاهاتِ ٱلتِّلالِ أَوِ ٱلأماكِنِ ٱلمُرْتَفِعَةِ على ٱلشَّواطِئِ بِواسِطَةِ ٱلإِبْرَةِ ٱلمَغْنَطِيسِيَّةِ . وكانَ كُلَّما تَحَصَّلَ لَدَيْهِ نُقْطَتانِ (أَوْ أَكْثَر) وَصَلَ بَيْنَهُما على ٱلخَرِيطةِ بِخَطٍّ ؛ وبِهٰذا أَمْكَنَهُ تَحْدِيدُ مَرْكَزِهِ .

ومَرَّتِ ٱلأَيَّامُ وٱلشُّهُورُ وكوك مُثابِرٌ على عَمَلِهِ في تَحْدِيدِ مَواقِعِ آلافِ مَقاساتِ ٱلأَعْماقِ . ولَمَّا أَتَمَّ ٱلخَرِيطةَ ، وكانَتْ دَقِيقةً لِلْغايَةِ ، مَنَحَتْهُ ٱلبحرِيَّةُ مُكافَأَةً خاصَّةً .



وأَصْبَحَ كُوكْ مَعْرُوفًا بِأَنَّهُ أَمْهَرُ رَجُلٍ في إعْدادِ الحرائِطِ ٱلبحريَّةِ في ٱلأُسْطُولِ ٱلملكِيِّ بأَجْمَعِهِ. فصارَ يُكَلَّفُ بِهٰذا ٱلعَمَلِ كُلَّما دَعَتِ ٱلحاجَةُ إِلَيْهِ.

وسُرْعانَ ما دَعَتِ ٱلحاجَةُ إلى ذٰلِكَ. فَقَدْ أَلْحقَ غَزْوُ كَنَدا بِبَرِيطانْيا مُمْتَلَكاتٍ شاسِعَةً جَديدَةً. ومِنْ هٰذِهِ ٱلممتلكاتِ جَزيرَةُ نيُوفاوْنْدلانْد ٱلكَبيرَةُ وٱلّتي لَمْ يَكُنْ لِشَواطِئِها خَرائِطُ. فكَلَّفَتِ ٱلبحريَّةُ كوكْ ٱلقِيامَ بعَمَلِ هٰذا ٱلتَّخطِيطِ، ومَنَحَتْهُ سَفينَةً خاصَّةً يَتَوَلَّى أَمْرَها. وكانَتْ هٰذِهِ أَوَّلَ سَفِينَةٍ يَرْأَسُها كُوكْ، وعُرِفَتْ بِٱسْمِ جِرْنْقِل.

في جَنُوبِ نيُوفاوَنْدلانْد جَزِيرتانِ صَغِيرتانِ هُما سانْت بْيير ومِيكلُون. وبِمُوجِبِ ٱتِّفاقِيَّةِ ٱلصُّلْحِ كانَ يَنْبَغي إعادَةُ هاتَيْنِ ٱلجَزِيرتَيْنِ إلى فَرَنْسا، ولكِنْ رَأَتِ ٱلبحريَّةُ ٱلبريطانيَّةُ أَنْ يَكُونَ لَدَيْها خَرائِطُ شَواطِئِهِما، فأَجَّلَتْ تَسْلِيمَهُما حتَّى أَتَمَّ كوكْ أَبحاثَهُ وخَطَّطَ ٱلخَرائِطَ.



وكانتِ ٱلمِلاحةُ في شواطِىءِ نيُوفاوندلاند شاقّةً وخطِرةً . فغالِبًا ما تكونُ ٱلمِياهُ مُتجمِّدةً ، أوْ تجتاحُ ٱلعواصِفُ ٱلمِنْطقةَ .

وإذا ما ألقيْتَ نظْرةً ثانيةً على ٱلخرِيطةِ ، فستجِدُ أنَّ شاطِئَ نيُوفاوندلاند تقْطَعُهُ مِئاتُ ٱلخُلْجانِ وٱلمداخِلِ ٱلصَّغِيرة . وكانَ على كُوك دِراسةُ كُلٍّ مِنْ هذهِ على حِدَةٍ . وقامَ كوك بٱلعَملِ بدِقَّةٍ فائِقَةٍ حتَّى إنَّ خرائِطَهُ ظلَّتْ تُستعْمَلُ مُدَّةَ مائتَيْ عامٍ . ولَمْ تُخطَّطْ خرائِطُ جديدةٌ إلّا حدِيثًا .

وفي خِلالِ ٱلأرْبعِ سَنَواتٍ ٱلتي ٱستغْرقَها كوك في عَملِ خرائطِ نيُوفاوندلاند ، واجهَ كثِيرًا مِنَ ٱلمُغامراتِ . فقَدِ ٱنْقلَبَ بِهِ ٱلقارِبُ مرَّةً ، نتِيجةَ إهْمالِ أحدِ ٱلبحّارةِ ، ووَقعَ كوك في ٱلماءِ ، ولَمْ يكُنْ يعْرِفُ ٱلسِّباحةَ . ولَوْلا أنْ بادرَتْ لإنْقاذِهِ إحْدَى سُفُنِ ٱلبحْرِيَّةِ ،ٱلتي ٱتَّفقَ وُجُودُها بٱلقُرْبِ مِنْهُ . لَقَضَى نَحْبَهُ غرَقًا .



وبَيْنَما كانَ كوك مُنْهمِكًا في إعْدادِ خَرائِطِ نيُوفاوِنْدلانْد ، وَقَعَ حَدَثٌ فَلَكِيٌّ هامٌّ ، هُوَ كُسُوفُ ٱلشَّمْسِ .

وكُسُوفُ ٱلشَّمْسِ يَحْدُثُ نَتيجَةَ مُرُورِ ٱلقَمرِ بَيْنَ ٱلأَرْضِ وَٱلشَّمْسِ ، فَتُحْجَبُ ٱلشَّمْسُ وكَأَنَّها مُحيَتْ مِنَ ٱلسَّماءِ . وهٰذا نادِرُ ٱلوُقُوعِ ، ولكِنْ عِنْدَ حُدُوثِهِ تُدْرَسُ هٰذِهِ ٱلظَّاهِرَةُ بعِنايَةٍ وَٱهْتِمامٍ ، فَيَخْرُجُ ٱلعُلَماءُ وَٱلْمُهْتَمُّونَ إلى أَماكِنَ تَسْهُلُ فيها ٱلرُّؤْيَةُ ومَعَهُمْ آلاتٌ خاصَّةٌ لِلرَّصْدِ .

وفي ٱلإمْكانِ ٱلتَّنَبُّؤُ بِوُقُوعِ هٰذِهِ ٱلظَّاهِرَةِ . وكانَ كوك يَعْلَمُ بأَنَّهُ سَيَرى ٱلكُسُوفَ يَوْمَ ٥ آب (أُغُسْطُس) ١٧٦٦ مِنْ جَزِيرَةٍ صَغِيرَةٍ تُدْعَى بُرجِيُو ، جَنُوبِيّ نيُوفاوِنْدلانْد .

راقَبَ كوك ٱلكُسُوفَ بِعِنايَةٍ وخَطَّطَ ما رأى بدقَّةٍ . وكانَ مِنْ دِقَّةِ مُلاحَظاتِهِ أَنْ نَشَرَتْها لَهُ ٱلجمعيَّةُ ٱلمَلَكِيَّةُ ٱلبريطانيَّةُ ، وهي جَمعيَّةٌ كانَتْ ، ولا تَزالُ ، واحِدَةً مِنْ أَشْهَرِ ٱلجمعيَّاتِ ٱلعِلْمِيَّةِ في ٱلعالَمِ .

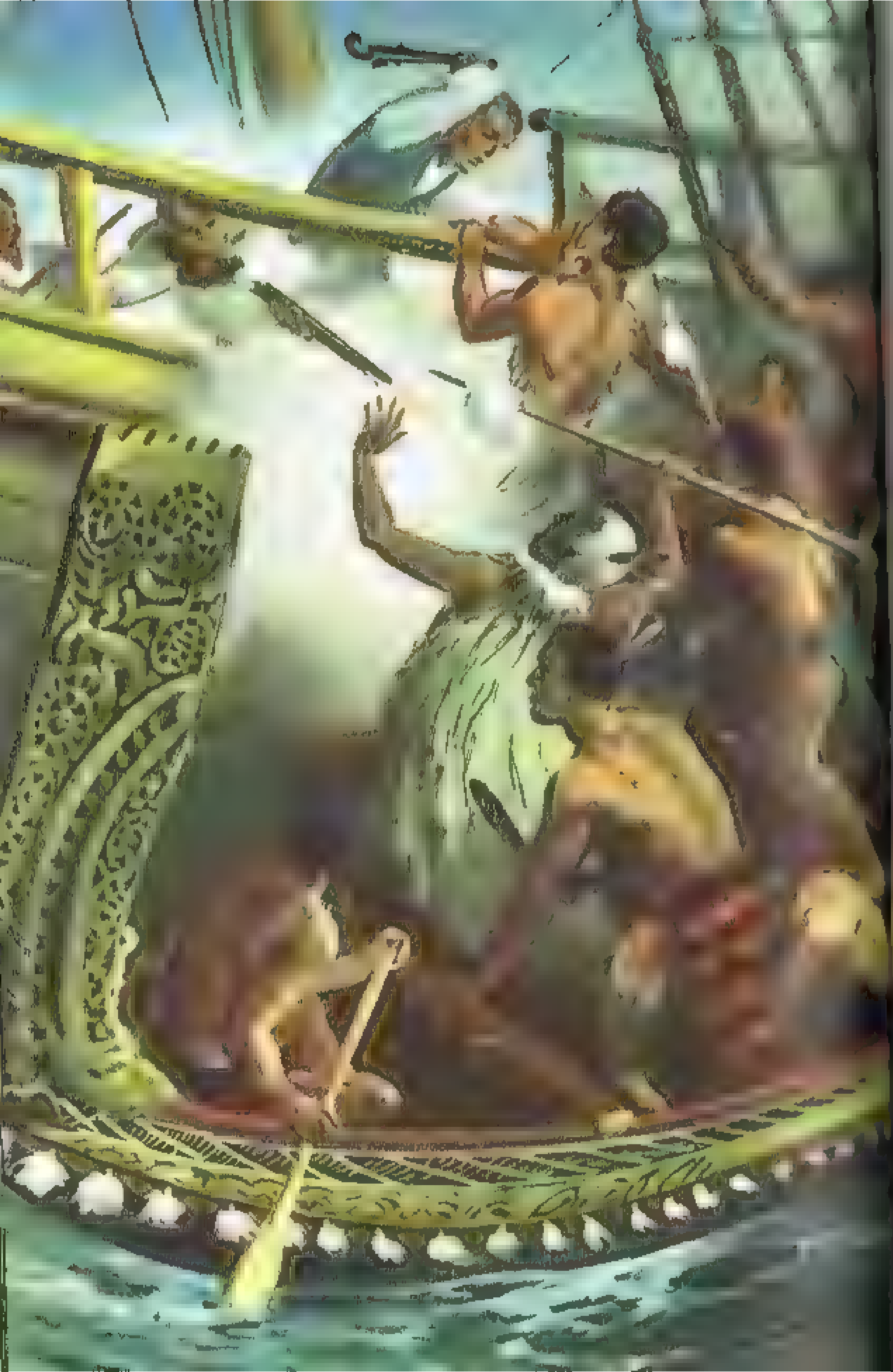


بَعْدَ ثلاثِ سَنَواتٍ ، عُهِدَ إلى كوك ، نَتيجَةً لِمُلاحَظاتِهِ ٱلقَيِّمَةِ عَنِ ٱلكُسُوفِ ، ٱلقِيامُ بِمُهِمَّةٍ مُماثِلَةٍ وهي دِراسَةُ ظاهِرَةِ ما يُسَمَّى عُبُورَ كَوْكَبِ ٱلزُّهَرَةِ .

وٱلزُّهَرَةُ أَحَدُ ٱلكَواكِبِ ٱلَّتي تَدُورُ حَوْلَ ٱلشَّمْسِ مِثْلَ أَرْضِنا هٰذِهِ . وعُبُورُ ٱلزُّهَرَةِ ما هُوَ في ٱلحَقيقَةِ إلّا ظاهِرَةٌ مُماثِلَةٌ بِٱلضَّبْطِ لِظاهِرَةِ كُسُوفِ ٱلشَّمْسِ . الّا أَنَّ ٱلزُّهَرَةَ هُوَ ٱلذي يَمُرُّ بَيْنَ ٱلأَرْضِ وٱلشَّمْسِ ، ولَيْسَ ٱلقَمَرُ . ولأَنَّ ٱلمسافَةَ بَيْنَنا وبَيْنَ ٱلزُّهَرَةِ أَبْعَدُ بكَثيرٍ مِنَ ٱلمَسافَةِ بَيْنَنا وبَيْنَ ٱلقَمَرِ ، فٱلزُّهَرَةُ لا يَحْجُبُ ٱلشَّمْسَ بَلْ يَبْدُو كَبُقْعَةٍ صَغيرَةٍ سَوْداءَ فَوْقَ سَطْحِها .

وكانَ أَفْضَلُ مَكانٍ لِرَصْدِ هٰذِهِ ٱلظَّاهِرَةِ ، جَزيرَةً صَغيرَةً تُدْعَى تاهيتي ، واقِعَةً في ٱلمُحيطِ ٱلهادِي ٱلجُنُوبيِّ . ولِذا أَبْحَرَ كُوكُ إلى تاهيتي على ظَهْرِ باخِرَةٍ تُدْعَى إنْدفَر . (والصّورَةُ المُقابِلَةُ تُمَثِّلُهُ مَعَ بَعْضِ سُكّانِ تِلْكَ الجَزيرَةِ) .

وقُدِّرَ لِهذِهِ ٱلسَّفينَةِ ، فِيما بَعْدُ ، أَنْ تُصْبِحَ واحِدَةً مِنْ أَشْهَرِ ٱلسُّفُنِ ٱلإنجليزيَّةِ .



بَعْدَ أَنْ رَصَدَ كُوك تَحَرُّكَ ٱلزُّهَرَةِ عَبْرَ ٱلشَّمْسِ ، بَدَأَ يُنَفِّذُ ٱلجُزْءَ ٱلثَّانِيَ مِنْ مُهِمَّتِهِ ، أَلَا وهُوَ ٱلبَحْثُ عَنْ قارَّةٍ جَنُوبِيَّةٍ كانَ يُظَنُّ أَنَّها تُغَطِّي ٱلقُطْبَ ٱلجَنُوبِيَّ .

ولَمْ يَكُنْ أَحَدٌ قَدْ وَطِئَ تِلْكَ القارَّةَ بَعْدُ ، ولكنْ كانَ ٱلبَحّارَةُ يُشاهِدُونَ أَرْضًا جِهَةَ ٱلجَنُوبِ ، وكانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلأَرْضَ ما هِيَ إِلّا جُزْءٌ مِنْ قارَّةٍ عَظِيمَةٍ جَدِيدَةٍ . وأَرادَ كُوك أَنْ يَقِفَ على حَقِيقَةِ ٱلأَمْرِ ، فإذا ما وَجَدَ أَنَّ ٱلقارَّةَ ٱلجَنُوبِيَّةَ ما هِيَ إِلّا سَرابٌ عَرَّجَ على نيُوزِيلانْدَةَ – وكانَتْ قَدِ ٱسْتُكْشِفَتْ مِنْ قَبْلُ - لِيَرْسُمَ خَرِيطَةَ شَواطِئِها وٱلمِياهِ ٱلمُحِيطَةِ بِها .

وكانَ لَدَى كُوك خَرِيطَةُ ٱلمُحِيطِ ٱلهادِي ٱلجَنُوبِيِّ وعَلَيْها عَلامَةُ ٱلقارَّةِ ٱلمَزْعُومَة . فَلَمّا مَرَّ فَوْقَ ٱلبُقْعَةِ ٱلمُحدَّدَةِ لَمْ يَجِدْ لِلأَرْضِ أَثَرًا ، فَأَكْمَلَ إِبْحارَهُ إلى نيُوزِيلانْدَةَ .

هُناكَ هاجَمَتْهُ قَبائِلُ ٱلمُواطِنِينَ ٱلمَعْرُوفِينَ بِٱسْمِ ماوُرِي ، فَقاتَلَ كُوك وجَماعَتُهُ ، دِفاعًا عَنِ ٱلنَّفْسِ ، مَعَ أَنَّهُ كانَ مَعْرُوفًا عَنْهُ رَغْبَتُهُ في مُعامَلَةِ سُكّانِ ٱلبِلادِ مُعامَلَةً رَفِيقَةً .



وكانَ كُوك أَوَّلَ أُورُوبِيٍّ يُبْحِرُ حَوْلَ شَواطِئِ نيوزيلانْدَةَ . وتَبَيَّنَ لَهُ ، كَمَا نَعْرِفُ ٱلْيَوْمَ ، أَنَّها تَتكَوَّنُ مِنْ جَزِيرتَيْنِ كَبِيرتَيْنِ . ولِذا لا يُمْكِنُ أَنْ تكُونَ جُزْءًا مِنَ ٱلقارَّةِ ٱلجَنُوبِيَّةِ كَما كانَ يَظُنُّ ٱلمَلّاحُونَ .

وصَدَرَتِ ٱلأَوامِرُ لِكُوك بِٱلعَوْدَةِ إلى إِنْجلترا ، فَقَرَّرَ ٱلإِبْحارَ عَنْ طَرِيقِ أُسْتراليا ، وكانَتْ تُدْعَى نيُو هُولَنْد .

وحَتَّى ذٰلِكَ ٱلحينِ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ قَدْ عَبَرَ شاطِئَ أُسْتراليا ٱلشَّرْقِيَّ ، فَقَرَّرَ كُوك ، على عادَتِهِ ، كَشْفَ ٱلشّاطِئِ وتَخْطِيطَ خرائِطَ لَهُ .

وكانَ هٰذا ٱلشّاطِئُ يَخْتَلِفُ كُلَّ ٱلاَخْتِلافِ عَنْ أَيِّ شاطِئٍ آخَرَ رَآهُ مِنْ قَبْلُ . فَقَدْ كان هُناكَ سَدٌّ مَرْجانِيٌّ يُعْرَفُ بِٱسْمِ ٱلحاجِزِ ٱلمَرْجانِيِّ ٱلعَظِيمِ . يَمْتَدُّ على ٱمْتِدادِ ٱلشّاطِئِ ٱلشَّمالِيِّ ٱلشَّرْقِيِّ لِبِضْعِ مِئاتٍ مِنَ ٱلكِيلُومِتْرات . وأَبْحَرَ كُوك بَيْنَ ٱلسَّدِّ وٱلشّاطِئِ ، ولكِنْ طَبْعًا دُونَ ٱلاَسْتِعانَةِ بِأَيَّةِ خَرائِطَ . وفي لَيْلَةٍ ٱرْتَطَمَتِ ٱلسَّفِينَةُ بِٱلسَّدِّ بِصُورَةٍ مُفاجِئَةٍ ، وتَوَقَّفَتْ عِنْدَهُ ، ولاحَ أَنَّها قَدْ تَحَطَّمَتْ .



وأَصبَحَ كُوك وبَحّارَتُهُ في مَأْزِقٍ خَطِرٍ . فَهُمْ على شاطِئٍ مَجْهُولٍ يَبْعُدُ آلافَ ٱلأَمْيالِ عَنْ وَطَنِهِمْ ، ولَيْسَ هُناكَ أَيُّ أَمَلٍ في نَجْدَةٍ . إذْ كانَ قَدِ ٱنْقَضَى عَلَيْهِمْ أَكْثَرُ مِنْ عامٍ لَمْ يَرَوا خِلالَهُ رَجُلًا أُورُوبِّيًّا واحِدًا ، ولا يَعْلَمُ مَصِيرَهُمْ أَحَدٌ في ٱلعالَمِ ٱلْمُتَحَضِّرِ كُلِّهِ ، ولَوِ ٱفْتَقَدَهُمْ أَحَدٌ لَمَا عَلِمَ أَيْنَ يَبْحَثُ عَنْهُمْ .

فَأَمَرَ ٱلقُبْطانُ كُوك بَحّارَتَهُ بِتَخفيفِ حُمولَةِ ٱلسَّفينَةِ ، فَقَذَفُوا في ٱلبَحْرِ بِكُلِّ ما يَخْتَزِنُونَ مِنْ حُمُولَةٍ ، بِما في ذلِكَ ٱلمَدافِعِ . وأَخيرًا ، وبَعْدَ أَنْ أَخَذَتِ ٱلسَّفينَةُ تَطْفُو على ٱلماءِ ، تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ ٱلمِياهَ تَتَدَفَّقُ داخِلَها تَدَفُّقًا سَريعًا .

وواجَهَ كوك وبَحّارَتُهُ خَطَرَ ٱلغَرَقِ ، إلّا أَنَّ ٱلمِضَخّاتِ نَجَحَتْ في خَفْضِ مُسْتَوَى ٱلماءِ داخِلَ ٱلسَّفينَةِ وأَمْكَنَهُمُ ٱلوُصُولُ إلى ٱلشّاطِئِ ، حَيْثُ لَبِثُوا شَهْرًا يُرَمِّمُونَ ٱلفَتَحاتِ .

وأَخيرًا أَمْكَنَهُمُ ٱلإقْلاعُ ، ولٰكِنْ بَعْدَ أَنْ رَفَعَ كُوك ٱلعَلَمَ ٱلبريطانِيَّ فَوْقَ أُسْتراليا ، ٱلَّتي هِيَ ٱليَوْمَ ، مِثْلُ كَندا ، دَوْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ وعُضْوٌ في مَجموعَةِ دُوَلِ ٱلكُومُنْوِلْث .



عادَ كُوك إلى وَطَنِهِ يَحْمِلُ مَعَهُ مَعْلُوماتٍ وافِرَةً عَنِ ٱلْمُحيطِ ٱلجَنُوبِيِّ وقارَّةِ أُسْتراليا ٱلعَظيمةِ ولَمْ يَفْقِدْ ، وهُوَ ما كانَ يَدْعُو إلى ٱلعَجَبِ ، رَجُلًا واحِدًا مِنْ بَحّارَتِهِ بِسَبَبِ مَرَضِ ٱلإسْقُرْبُوطِ .

وٱلإسْقُرْبُوطُ مَرَضٌ يُصيبُ ٱلأَشْخاصَ ٱلذين لا يَتَناوَلُونَ ٱلخَضْراواتِ ٱلطّازِجَةَ وٱلفاكِهَةَ . وكانَ سَبَبُهُ حِينَذاكَ مَجْهُولًا ، كَما لَمْ يَكُنْ غَريبًا أَنْ يَمُوتَ نِصْفُ ٱلبَحّارَةِ في ٱلرِّحْلاتِ ٱلطَّويلَةِ نَتيجَةَ هٰذا ٱلمَرَضِ . وكُوك أَوَّلُ مَنْ فَكَّرَ في طَريقَةٍ لِمَنْعِهِ .

وبِٱلطَّبْعِ لَمْ يَكُنْ بِمَقْدُورِهِ أَنْ يَحْصُلَ على ٱلخَضْراواتِ ٱلطّازِجَةِ ، وٱلسَّفينَةُ بَعيدَةٌ عَنِ ٱليابِسَةِ في رِحْلَةٍ تَمْتَدُّ أَشْهُرًا ، وَلِذا أَخَذَ مَعَهُ بَعْضَ ٱلخَضْراواتِ ٱلمُخَلَّلَةِ .

ورَفَضَ ٱلبَحّارَةُ في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ هٰذا ٱلطَّعامَ ، فَأَمَرَ كُوك أَنْ يُخَصَّصَ لِلضُّبّاطِ فَقَطْ ، فَأَقْبَلَ ٱلبَحّارَةُ عَلَيْهِ راضِينَ . وَهٰكَذا أَبْحَرَتِ ٱلسَّفينَةُ حَوْلَ ٱلعالَمِ دُونَ أَنْ يَمُوتَ رَجُلٌ واحِدٌ مِنْ رِجالِها مِنْ ذٰلِكَ ٱلمَرَضِ ٱللَّعينِ .



وَلَمْ يَمْكُثْ كُوك في إِنْجِلترا طَوِيلًا ، فَبَعْدَ مُرُورِ عامٍ بَدَأَ رِحْلَةً أُخرى بَحْثًا عَنِ ٱلقارَّةِ ٱلجَنُوبِيَّةِ ٱلعَظِيمَةِ .

وتَغَيَّبَ كُوك عَنْ بَلَدِهِ ثلاثَ سَنَواتٍ ، وَصَلَ أَثْناءَها إلى مَناطِقَ في ٱلقُطْبِ ٱلجَنُوبِيِّ لَمْ يَكُنْ غَيْرُهُ قَدْ وَصَلَ إِلَيْها ، ورَأَى كُتَلَ ٱلثَّلْجِ وَٱلجِبالَ ٱلجَلِيدِيَّةَ ٱلهائِلَةَ ، كما رأى ، ولِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، طائِرَ ٱلبِطْرِيقِ ، ذٰلِكَ ٱلطّائِرَ ٱلغَرِيبَ ٱلأَلِيفَ ٱلذي يَعيشُ في ٱلقُطْبِ ٱلمتجمِّدِ ٱلجَنُوبِيِّ .

وقَدْ وَصَلَ ٱلقُبْطانُ كُوك في رِحْلَتِهِ إلى مِنْطَقَةٍ لا تَبْعُدُ إلّا مائَةً وسِتِّينَ كِيلُومِترًا عَنِ ٱلأَرْضِ ٱلجليدِيَّةِ ٱلمُحِيطَةِ بِٱلقُطْبِ ٱلجَنُوبِيِّ . وبذٰلِكَ بَرْهَنَ على أَنَّ ٱلقارَّةَ ٱلجَنُوبِيَّةَ ٱلعَظِيمةَ ٱلتي زَعَمُوا أَنَّها قائِمةٌ في ٱلمُحِيطَيْنِ ٱلهادِي وٱلأَطْلَسِيِّ ، لا وُجُودَ لَها .

وأَبْحَرَ كُوك بِمُحاذاةِ كُتْلَةِ ٱلجليدِ ٱلجَنُوبِيَّةِ . وكانَ ٱلبَرْدُ قارِسًا رَهِيبًا ، وَصَفَهُ كُوك بِقَوْلِهِ : «كُنّا كَمَنْ يَلْبَسُ دِرْعًا مِنَ ٱلجَلِيْدِ .»



وأَثْناءَ هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ، قامَ كُوك بِزِيارَةِ كَثيرٍ مِنْ جُزُرِ ٱلبِحارِ ٱلجُنُوبِيَّةِ ، ولَعَلَّ أَعْجَبَها جَزِيرَةُ إِيْسْتَر ، وَهِيَ جَزِيرَةٌ نائِيَةٌ تَقَعُ في أَقاصي جَنُوبِ ٱلمحيطِ ٱلهادِي . وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ هٰذِهِ ٱلجَزيرَةِ عِنْدَ بَعْضِ ٱلرَّحّالَةِ ٱلذِينَ زارُوا تِلْكَ ٱلمِنْطَقَةَ في أَوائِلِ ذٰلِكَ ٱلقَرْنِ . غَيْرَ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَتمكَّنْ حَتَّى ٱليَوْمِ مِنْ حَلِّ لغْزِ ٱلتّماثيلِ ٱلحَجَرِيَّةِ ٱلْمُنْتَشِرَةِ في أَرْجاءِ ٱلجَزِيْرَةِ .

ولَيْسَ لِهٰذِهِ ٱلتّماثيلِ شَبِيهٌ في أَيِّ بُقْعَةٍ أُخْرى مِنَ ٱلعالَمِ ، ولا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى صُنِعَتْ ولا مَنْ صَنَعَها . ولكِنْ مِنَ ٱلمُؤَكَّدِ أَنَّ ٱلذينَ حَفَرُوها لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِم أَيَّةُ آلاتٍ مَعْدِنِيَّةٍ ولا أَيَّةُ طَرِيقَةٍ لِنَقْلِها سِوَى جَرِّها بِحِبالٍ مَصْنُوعةٍ مِنَ ٱلحَشائِش .

وَبَعْضُ هٰذِهِ ٱلتَّماثيلِ يَبْلُغُ ٱرْتِفاعُهُ حَوالَى عَشَرَةِ أَمْتارٍ ويَزِنُ خَمْسِينَ طُنًّا . وٱلتَّماثِيلُ ٱليَوْمَ باقِيَةٌ كَما كانَتْ حَيْثُ هِيَ مُنْذُ مِئاتِ ٱلسِّنِين ، تُطِلُّ على ٱلبَحْرِ .



قُوبِلَ كُوك بِتكْرِيم عَظِيم عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ رِحْلَتِهِ ٱلطَّوِيلَةِ ، ومَنَحَتْهُ ٱلجمعِيَّةُ ٱلمَلَكِيَّةُ مِيدالِيَّةً ذَهَبِيَّةً ٱعْتِرافًا بِٱسْتِكْشافاتِهِ .

وكانَ مَلِكُ ٱلإِنجليزِ في ذلِكَ ٱلعَهْدِ ، جُورج ٱلثّالِثُ ، مُولَعًا بِٱلتَّرْحالِ والٱسْتِكْشافِ ، فَدَعَا ٱلقُبْطانَ كُوك إلى حَضْرَتِهِ في قَصْرِهِ ، وٱسْتَفْسَرَ مِنْهُ بِٱلتَّفْصِيلِ عَنْ كُلِّ ما رأى وما فَعَلَ .

كَذلِكَ ٱعْتَرَفَتِ ٱلبحريَّةُ بِخَدَماتِهِ ، فَرَفَعَتْ رُتْبَتَهُ إلى قُبْطانٍ رابعٍ في مُسْتَشْفَى جْرِينِتْش ، وجَعَلَتْ راتِبَهُ مائَتَيْ جُنَيْهٍ اسْترلينيٍّ سَنَوِيًّا . وكانَ مِثْلُ هٰذا ٱلمَبْلَغِ يُعْتَبَرُ ، في ٱلقَرْنِ ٱلثّامِنَ عَشَرَ ، ضَخْمًا .

ولَمْ يَكُنْ مُسْتَشْفَى جْرِينِتْش مُسْتَشْفًى بالمَعْنى ٱلّذي نَفْهَمُهُ ٱليَوْمَ . بَلْ كانَ مَكانًا يُقِيمُ فيه ٱلرِّجالُ ٱلّذينَ هُمْ مَوْضِعُ تكْرِيمِ أُمَّتِهِمْ . وكانَ بإمْكانِ كوك أنْ يُقِيمَ هُناكَ إقامَةً مُرِيحَةً ناعِمَةً أَيّامَهُ الباقِيَةَ كُلَّها ، ولكِنَّ تلكَ الحياةَ لَمْ تَكُنْ لِتُرْضِيَه . لم يَكُنْ لِيُرْضِيَهُ إلّا أنْ يَنْطَلِقَ في رِحْلَةٍ اسْتِكْشافِيَّةٍ جَدِيدَةٍ .

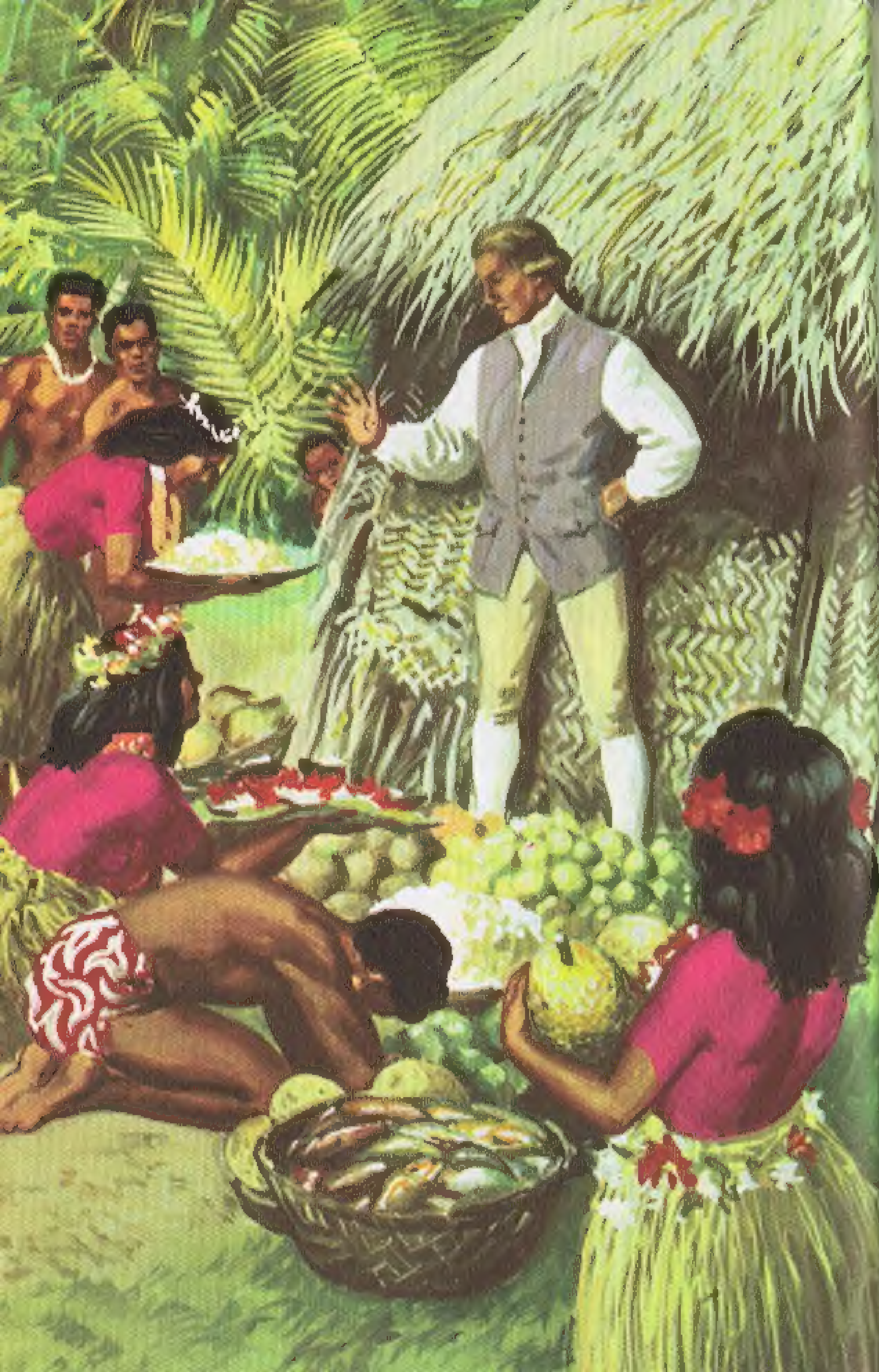


وفي تِلْكَ ٱلأَيّامِ كانَ ٱلنّاسُ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ ٱلإِبْحارَ مِنَ ٱلْمُحيطِ ٱلأَطْلَسِيِّ ، حَوْلَ شَمالِ كَنَدا ، إلى ٱلْمُحيطِ ٱلهادِي مُمْكِنٌ . ودَعَوا هٰذا ٱلمَسْلَكَ ٱلمَمَرَّ ٱلشَّمالِيَّ ٱلغَرْبِيَّ . وكَثِيرُونَ حاوَلُوا ٱلعُثُورَ على هٰذا ٱلمَمَرِّ ، ومِنْ بَيْنِهِمْ فرَنْسِيس دْرِيك .

تَلَقَّى كُوك أَمْرًا بِأَنْ يَأْخُذَ سَفِينَتَيْنِ ويَبْحَثَ عَنْ هٰذا ٱلمَمَرِّ . فَأَبْحَرَ جَنُوبًا حَوْلَ رَأْسِ ٱلرَّجاءِ ٱلصّالِحِ إلى نْيُوزِيلانْدَة ثُمَّ عَبَرَ ٱلْمُحيطَ ٱلهادِي مُتَّجِهًا إلى ٱلشَّمالِ ٱلغَرْبِيِّ مِنْ شاطِئِ أَمريكا .

ولَمْ يَكُنْ سَبَقَ لِأَحَدٍ مِنَ ٱلإنجليزِ أَنْ سَلَكَ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقِ . وعِنْدَما قابَلَ كُوك بَعْضَ ٱلبَحّارَةِ ٱلرُّوسِ ٱلوافِدِينَ مِنْ شَرْقِ سِيبِيرْيا ، سَأَلَهُمْ عَمّا إذا كانَ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ ٱلإِبْحارُ مِنْ هُناكَ شَمالًا .

كانَ ٱلبَحّارَةُ ٱلرُّوسُ صَيّادِينَ ولَمْ يَسْمَعُوا في حَياتِهِمْ بإنجلترا ولا حَتّى بِأُورُوبّا . وبِٱلطَّبْعِ لَمْ يَفْهَمُوا لُغَةَ كُوك ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كانُوا قادِرِينَ على ٱلرَّسْمِ ، فَجَلَسُوا مَعَ كُوك حَوْلَ مِنْضَدَةٍ يَرْسُمُونَ ٱلخَرائِطَ ٱلَّتي جَمَعَ كُوك مِنْها مَعْلُوماتٍ مُفِيدَةً .



وَلَمْ يَكْتَشِفْ كُوك ٱلْمَمَرَّ ٱلشَّمالِيَّ ٱلغربِيَّ ، فٱتَّجَهَ شَمالًا حَتَّى صَدَّتْهُ ٱلثُّلوجُ ، إذْ لم يَقْوَ على ٱخْتِراقِها بِسَفِينَتِهِ ٱلصَّغيرَةِ . فَوَلَّى وَجْهَهُ شَطْرَ ٱلجَنُوبِ ثانِيَةً .

وكانَ في نِيَّتِهِ أَنْ يَقْضِيَ فَصْلَ ٱلشِّتاءِ في جُزُرِ ٱلهَوايِ ثُمَّ يَسْتَأْنِفَ رِحْلَتَهُ شَمالًا في ٱلرَّبيعِ ٱلتّالي .

وكانَ بَيْنَ تِلْكَ ٱلجُزُرِ جَزِيرَةٌ غَيْرُ مُسْتَكْشَفَةٍ تُدْعَى ماوِي . وسُكّانُ تِلْكَ ٱلجزيرةِ لَمْ يَكُونُوا قَدْ رَأَوا رَجُلًا أُورُوبِيًّا ، فَحِيْنَ وَقَعَ نَظَرُهُمْ على كُوك ظَنُّوهُ إلٰهَ قَبِيلَتِهِمْ ، ٱلإلٰهَ أُورُونُو .

وَلَمْ يَتمكَّنْ كُوك مِن إقْناعِهِمْ بأنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ . وعُومِلَ طُولَ مُدَّةِ إقامَتِهِ هُناكَ مُعامَلَةَ ٱلآلِهةِ وقُوبِلَ بٱلطُّقُوسِ وٱلقَرابِينِ .

غَيْرَ أَنَّ هٰذا لَمْ يَمْنَعِ ٱلمُواطِنِينَ مِنْ سَرِقَةِ كلِّ ما أَمْكَنَهُمْ سَرِقَتُهُ مِنَ ٱلسَّفِينَةِ .



وَبَعْدَ شَهْرٍ أَقْلَعَ كُوك بِسَفِينَتِهِ . ولٰكِنَّ عاصِفَةً هَوْجاءَ هَبَّتْ عَلَيْهِ فَدَمَّرَتْ سارِيَةَ ٱلسَّفِينةِ وَٱضْطُرَّ لِلْعَوْدَةِ إلى ماوي لِتَرْميمِها .

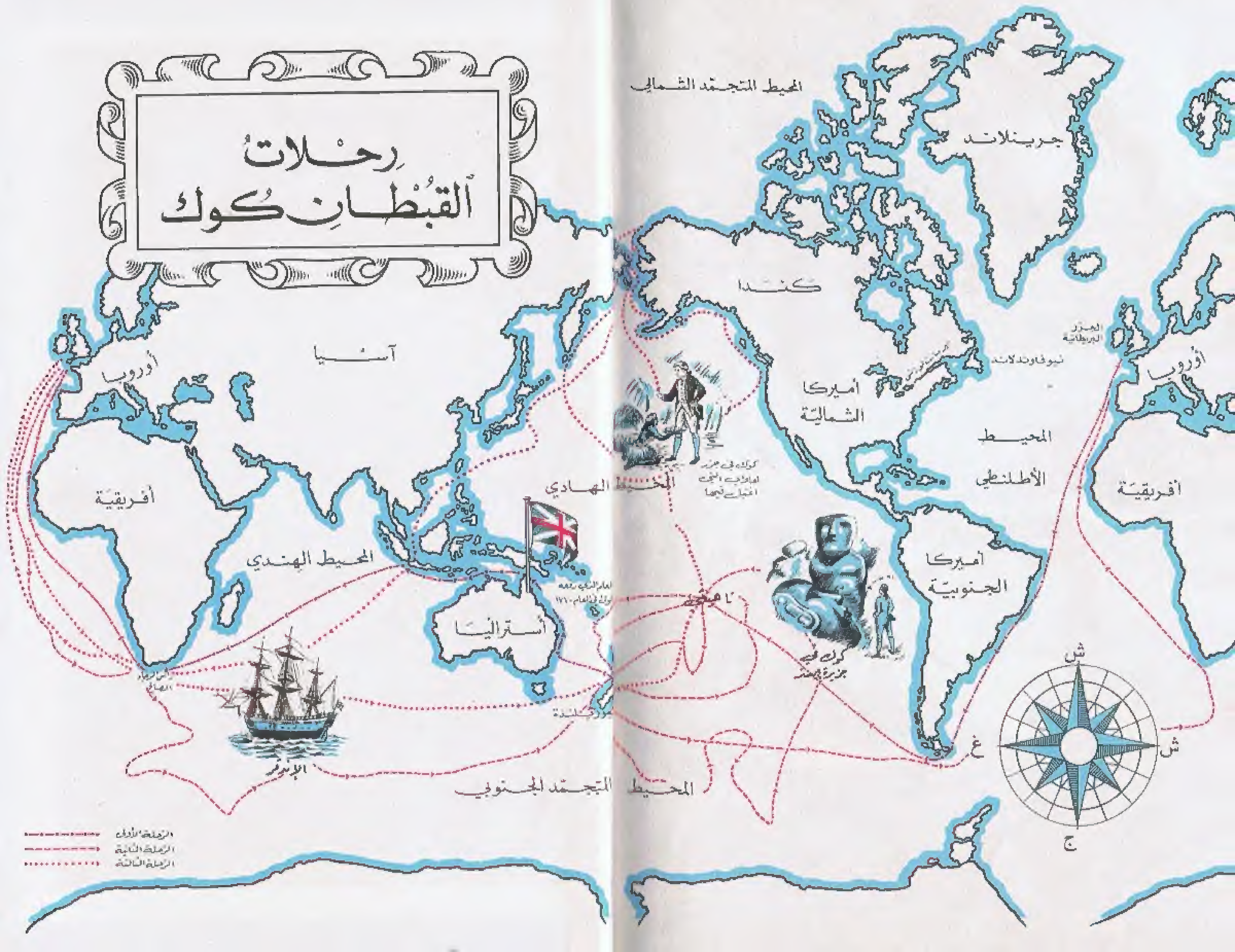
هُناكَ وَجَدَ أَنَّ سُلُوكَ ٱلْمُواطِنِينَ نَحْوَهُ وَنَحْوَ بَحّارَتِهِ قَدْ تَغَيَّرَ . ولَعَلَّهُمْ فكَّرُوا أَنَّ شَخْصًا تُصِيبُ ٱلعاصِفَةُ سَفِينَتَهُ بأَذًى ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إلٰهَهُمْ أُورونُو .

وأَخِيرًا ٱسْتَوْلَوْا عَلَى ٱلقارِبِ ٱلذي نَقَلَ ٱلبَحّارَةَ مِنَ ٱلسَّفِينةِ إلى ٱلشّاطِئِ .

نَزَلَ كُوك بِنَفْسِهِ إلى ٱلشّاطِئِ يُطالِبُ بِٱسْتِرْجاعِ ٱلقارِبِ ، وَصَحِبَ مَعَهُ مِلْءَ ٱلقارِبِ بَحّارَةً مُدَجَّجِينَ بِٱلبَنادِقِ ، تَحَسُّبًا لِأَيِّ عَمَلٍ عُدْوانِيٍّ .

وهُنا وَقَعَتِ ٱلْمَأْساةُ ، فَقَدْ هاجَمَ ٱلْمُواطِنُونَ كُوك وقَتَلُوهُ قَبْلَ أَنْ يَتمكَّنَ مِنَ ٱلعَوْدَةِ ، وَدُونَ أَنْ يَهُبَّ ٱلبَحّارَةُ إلى نَجْدَتِهِ .

وَهٰكَذا ماتَ واحِدٌ مِنَ ٱلمَلّاحِينَ ٱلرُّوّادِ وَٱلْمُسْتَكْشِفِينَ ٱلعِظامِ في ٱلعالَمِ .



رحلات القبطان كوك
المحيط المتجمد الشمالي
جرينلاند
كندا
آسيا
أوروبا
الجزر البريطانية
نيوفاوندلاند
أميركا الشمالية
المحيط الأطلنطي
أفريقية
المحيط الهادي
المحيط الهندي
أستراليا
أميركا الجنوبية
المحيط المتجمد الجنوبي
ش
غ
ج
الرحلة الأولى
الرحلة الثانية
الرحلة الثالثة

السِّلْسِلَةُ ٱلتّاريخيَّةُ

١ – جان دارْك
٢ – مارْكو بولو
٣ – الكابْتِنْ سْكوت
٤ – نابولْيون
٥ – كليوباترا وَمِصْرُ ٱلقَديمَةُ
٦ – تْشارْلز ديكنْز
٧ – كْريسْتوفَر كُولومْبوس
٨ – الإسكَنْدَرُ ٱلأَكْبَرُ
٩ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : مِصْر

١٠ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : ٱليونانُ
١١ – فْلورَنْس نَيْتِنْغيل
١٢ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : روما
١٣ – القُبْطانُ كُوكْ
١٤ – روبَرْت لويس سْتيفِنْسون
١٥ – هَنيبَعْل
١٦ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : كْريت
١٧ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : ٱلفايكِنْجز
١٨ – الحَضاراتُ ٱلكُبْرى : ٱلآزتِك

Series 561 Arabic
